ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

جهود عبد الحميد حاجيات في إبراز الإشعاع الفكري والثقافي لتلمسان عاصمة الزيانيين بين القرن(7-9هـ).

د. دهاش الصادق
جامعة البليدة 2
البريد الإلكتروني : dahaches@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2016/07/05 تاريخ القبول:2016/09/12

الملخص:

عرف المغرب الإسلامي ما بين القرن السابع و التّاسع الهجري حركة فكرية وعلمية وثقافية بارزة ، وبخاصة القرنيين الثامن والتاسع الهجريين ، بحيث تربعت تلمسان عاصمة الزيانيين عرش الانبعاث التعليمي ، وصارت مركز إشعاع فكري ومنارة ثقافية قصدها رحالة العلم والمعرفة من المغرب و المشرق والأندلس ،فكان حكام تلمسان من محبي العلم والعلماء ، فساهموا مساهمة فعالة في تشجيع و دفع عجلة الحركة العلميّة والأدبية وأمدوها برعايتهم و اهتمامهم وعطاياهم التي استثمرت في دور العلم وأماكن العبادة ، فكانت تلمسان بحق تصنع الحدث و تساهم في بناء العلم والمعرفة من بابه الواسع، وبهذا تشجيع ورعاية للعلم والعلماء، أصبحت تلمسان حاضرة من أعظم حواضر العلم في العالم الإسلامي كله، نافست فيه أرقى الجامعات الإسلامية كالقرويين بفاس والزيتونة بتونس والأزهر بمصر. و أما الإشكالية التي يمكن طرحها هي: ما مدى مساهمة الأستاذ عبد الحميد حاجيات في إظهار الطابع التراثي العلمي والثقافي لتلمسان عاصمة الزيانيين وانعكاسات ذلك على الهوية الثقافية للمغرب الإسلامي ؟.

الكلمات الدالة:
عبد الحميد حاجيات– المغرب الإسلامي – تلمسان– الزيانيون

العنوان بالإنجليزية:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

Abdel Hamid Hadjiyat efforts to highlight the intellectual and cultural radiation of Tlemcen, the capital of Zayani, between the 7th and 9th centuries.

Abstract:

The Islamic Maghreb between the seventh and ninth century AH was known as a great intellectual, scientific and cultural movement, especially the eighth and ninth centuries. Tlemcen, the capital of Zayani, took the throne of educational resurgence and became a center of intellectual radiation and a cultural beacon for the journey of science and knowledge from Morocco, Orient and Andalusia. From the lovers of science and scientists, they have contributed effectively to the promotion and advancement of scientific and literary movement and provided them with their care and attention and their gifts which invested in the role of science and places of worship.

Tlemcen was the right to manufacture the event and contribute to building science and knowledge by its door Sa, thus encouraging and take care of science and scientists, Tlemcen became the capital of one of the greatest science metropolises in the entire Islamic world, competing with the most prestigious Islamic universities Kalkaroaan Fez Zaytuna in Tunisia and Al-Azhar in Egypt. The problem that can be asked is: What is the contribution of Professor Abdul Hamid Hadjiyat to show the scientific and cultural heritage of Tlemcen, the capital of Zayani and the implications of this on the cultural identity of the Maghreb?

Key words:

Abdelhamid Hadjiyat - Islamic Maghreb - Tlemcen – Ziyani.

عرف المغرب الإسلامي ما بين القرن السابع و التّاسع الهجري حركة فكرية وعلمية وثقافية بارزة ، وبخاصة القرنيين الثامن والتاسع الهجريين ، بحيث تربعت تلمسان عاصمة الزيانيين عرش الانبعاث التعليمي ، وصارت مركز إشعاع فكري ومنارة ثقافية قصدها رحالة العلم والمعرفة من المغرب و المشرق والأندلس ،فكان حكام تلمسان من محبي العلم والعلماء ، فساهموا مساهمة فعالة في تشجيع و دفع عجلة الحركة العلميّة والأدبية وأمدوها برعايتهم و اهتمامهم وعطاياهم التي استثمرت في دور العلم وأماكن العبادة ، فكانت تلمسان بحق تصنع الحدث و تساهم في بناء العلم والمعرفة من بابه الواسع، وبهذا تشجيع ورعاية للعلم والعلماء، أصبحت تلمسان حاضرة من أعظم حواضر العلم في العالم الإسلامي كله، نافست فيه أرقى الجامعات الإسلامية كالقرويين بفاس والزيتونة بتونس والأزهر بمصر. و أما

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الإشكالية التي يمكن طرحها هي: ما مدى مساهمة الأستاذ عبد الحميد حاجيات في إظهار الطابع التراثي العلمي والثقافي لتلمسان عاصمة الزيانيين وانعكاسات ذللك على الهوية الثقافية للمغرب الإسلامي ؟.

1- تركيز حاجيات على الإشعاع الثقافي لتلمسان و عوامله:

كرّس الأستاذ عبد الحميد أغلب وقته في إبراز الصورة الحقيقية التي كانت عليها حال الجزائر" المغرب الأوسط"، مسلطا الضوء بصفة خاصة على ما يسمى بالهوية الثقافية النى طبعت الجزائر في عصر الازدهار العلمي والثقافي في العهد الإسلامي، فكان الأستاذ عبد الحميد حاجيات يبرز دائما الدور الذي لعبته الحواضر الثقافية في الجزائر تلمسان ، بجاية ،تيهرت، وقلعة بني حماد، وقسنطينة والجزائر العاصمة[1] .و كان الدكتور حاجيات يتتبع بذور و جذور المسار الفكري للنهضة العلمية الحقيقية التي شهدها المغرب الأوسط بين القرنين الثامن والتاسع الهجريين، والتي اختزلها حاجيات في ستة رموز وأقطاب هي :ابن خميس التلمساني (ت708هـ)،عالم الرياضيات، أبي العباس بن البناء المراكشي(ت721هـ)، لسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ)،أبي زكرياء يحي ابن خلدون (ت780هـ)،ابن مرزوق الخطيب (ت781هـ)، عبد الرحمن ابن خلدون (ت 808هـ) [2].

ويشكو الأستاذ عبد الحميد حاجيات من صعوبة تحديد الإطار الزماني ، انطلاقا مما توفر لديه من مصادر لعصر الإشعاع العلمي والفكري والثقافي لتلمسان، نظرا لقدم الفترة وتداخل حقبها ، ويعترف حاجيات بقلة حيلته للذهاب أبعد ما توصل إليه في معرفة زوايا وخبايا النشاط الثقافي التي كانت تنتجه تلمسان في العصر الوسيط الإسلامي، خاصة وأن هذه الأخيرة شهدت نشاطا مكثفا لتحقيق مهمة التعريب، ولكن في غياب المصادر الحقيقية التي تعذر لحاجيات الوصول إليها، لذلك فقد جهل التعرف على مراحل التعريب ، خاصة وأنه يقر صراحة بأن انتشار التعريب شرط أساسي لقيام ثقافة عربية إسلامية [3].و يعلل الأستاذ حاجيات ذلك بأن مدينة تلمسان بحكم بعدها عن مركز الدعوة الإسلامية في

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

شبه الجزيرة العربية فإنها شهدت حركة تعريب بطيئة ، فكانت متقطعة وعلى مراحل ، مقارنة بمدن أخرى كالقيروان والمسيلة وبعض المدن الأندلسية [4]، وكان من أهم عوائق تعريب تلمسان بحسب رأي المؤرخ عبد الحميد حاجيات ، هو "انتشار مذاهب الخوارج والشيعة الأدارسة والفاطميين ، غير أن عملية تعريب تلمسان بدأت منذ القرن الخامس الهجري"[5]، وتتميز كتابات المؤرخ عبد الحميد حاجيات في معظمها بالموضوعية ، ويظهر ذلك من خلال كتاباته التي يعلن فيها وبصراحة كبيرة بأن أعماله المنجزة لا ترقى إلى مستوى الكمال ، بل يعتريها النقص وهذا شيء طبيعي في كل الدارسات التاريخية، لأنها تفتقد لأمهات المصادر المحلية والأجنبية، لحقب زمانية وتاريخية صارت جد متقادمة .

بدأت الحركة الفكرية والثقافية بتلمسان في التوسع والانتشار بعد استفادتها من تأسيس بعض المدن التي كان لها فضل على تلمسان نذكر منها تيهرت(160هـ)،تنس وهنين ووهران(ق3هـ)، المسيلة (ق313هـ)،أشير (327هـ)،الجزائر المدية ومليانة (ق4هـ)،قلعة بني حماد (ق398هـ)، مما نتج عنها توسع في حركة التعريب بالمغرب الأوسط [6].ولم ينسى الأستاذ حاجيات أن يزودنا بعامل مهم كان وراء بروز الإشعاع الفكري لتلمسان، وهو تأسيس المرابطين لمدينة تاجرارت والتي كان يطلق عليها المؤرخون " تلمسان الجديدة"، وجعلوها مقرا لولايتهم[7]، فبدأت الحركة الفكرية والثقافية تشتد بها [8]. ومع ذلك يفرق الأستاذ حاجيات بين الإشعاع الثقافي الذي شهدته تلمسان، وبين النمو الثقافي الذي لم تبلغه تلمسان إلا في عهد ملوك الدولة الزيانية [9].

كان الفكر السياسي الإسلامي ملائما في جزائر العصر الإسلامي الوسيط مما انعكس إيجابا على نتاج وإبداع العلماء في مختلف المجالات، لذلك أحصى الدكتور قويدر بشار ما لا يقل عن إحدى

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

عشرة عاملا من عوامل إثراء الصرح الثقافي لتلمسان وغيرها من حواضر الجزائر، وهي: رعاية الملوك والأمراء للعلم والعلماء ومساندتهم ماديا ومعنويا حرية تنقل العلماء في داخل وخارج الجزائر كثرة مجالس الأدب وحلقات العلم، دور المساجد في خدمة الثقافة، إتباع علماء الجزائر لمناهج علمية وتعليمية متطورة تنوع أفكار وثقافة علماء الجزائر مما وسع من دائرة الجدال والنقاش والمناظرات العلمية واستفادة الجزائر من هجرة علماء الأندلس في إعطاء دفع قوي لانتشار الثقافة الشفوية والمكتوبة [10].

يبرر الدكتور عبد الحميد حاجيات أسباب تركيزه واهتمامه بدراسة وتحقيق التراث الثقافي للجزائر عامة وتلمسان خاصة ، مؤكدا على أن الموروث الثقافي للعرب المسلمين متعدد وغني والاشتغال عليه عمل شاق وصعب جدا ، لأنه يعتمد في الغالب على المسموع من الأدب الشعبي ، وعلى ما حفظته الذاكرة الشعبية، ويرى حاجيات من جهة أخرى بأن هناك نقص كبير للتأليف في التراث الثقافي بسبب استغناء الناس عن المكتوب واكتفائهم بالمسموع [11]. وفي الحقيقة كان الدكتور حاجيات منذ فترة طويلة قد تخصص في البحث عن آثار تلمسان وتاريخ الدولة العبد الوادية ، فكان مولعا بالبحث في المخطوطات التي تحوي تاريخ الجزائر الثقافي في حواضره الأساسية كتيهرت وتلمسان وبجاية وعنابة..، خاصة وأن الثقافة الشعبية الجزائرية في العصر الإسلامي كان يغلب عليها الطابع الفولكلوري النظمي المبني أساسا على الشعر الملحون ، مثل مخطوط" الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان " والتي جمعها محمد بن محمد امرابط ونسخها بيده سنة 1855[12].

ومما يدل على أهية التراث الشعبي وقيمته الاجتماعية والثقافية ، فكان الاستعمار الفرنسي ينتدب بعض الجزائريين للتنقيب والكشف عن كنوز الثقافة الجزائرية عبر العصور الماضية، مما لا يدع مجالا للشك أن بعض المستشرقين قد ساهموا بطريقة أو أخرى في استخراج تراثنا العربي الإسلامي ونفض الغبار عليه ، لذلك فقد أخبرنا محمد مرابط بنفسه بأنه انتدبه المستشرق الفرنسي بروسلار[13] لجمع

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

التراث الشعري، لأن هذا الأخير كان يولي عناية كبيرة لدراسة تاريخ تلمسان وآثارها الإسلامية، ليس هذا فحسب ، بل عني كذلك بالأدب الشعبي ، والموسيقى المغربية ذات الطابع الأندلسي [14].

و مع ذلك غريب أمر الاحتلال الفرنسي ، فقد كان يتلهف شوقا للعثور على الثقافة الشعبية الجزائرية ولذلك اهتم بجمعها وتحقيقها ونشرها، ليس حبا لها أو فيها، ولكن إعجابا بما أنتجته عقول الجزائريين وما سطرته أناملهم ، والغريب هو أن يستفيد الاحتلال الفرنسي من هذا الإرث الثقافي لاستعماله في هدم وطمس الذات الجزائرية والهوية العربية الإسلامية للجزائر ، ولذلك بمجرد جمع "كتاب الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان "بعد مرور حوالي عشرين سنة ، قام الاحتلال الفرنسي بتنفيذ سلسلة من المشاريع المعمارية والتي للأسف أدت إلى هدم كثير من مظاهر الحضارة الإسلامية ، ومن أهمها المدرسة التاشفينية [15]، ليس هذا فحسب ، بل أقدم الاحتلال الفرنسي على تحويل الهندسة المعمارية في معظم أحياء مدينة تلمسان إلى هندسة عصرية تحمل الطابع الأوربي الغريب عن ثقافة الجزائريين [16]. لعل اهتمام الدول العربية الصديقة والشقيقة بالأدب الشعبي دراسة وتأليفا ونشرا، كان هو الآخر سببا إضافيا مشجعا لدفع الدكتور عبد الحميد حاجيات لأن يهتم هو الآخر بالأدب الشعبي الجزائري ، ويعترف حاجيات صراحة بأنه اعتمد على بعض المؤلفات العربية وخاصة المشرقية منها في تحقيق كتاب " الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان " لوجود قواسم مشتركة في الثقافتين المشرقية والمغاربية (الجزائرية)، بهدف تصحيح بعض الاضطراب في اللغة والمعنى أو خلل في الوزن [17].

ومن جهته يتحسر الدكتور عبد الحميد حاجيات كثيرا لما آل إليه وضع الأدب الشعبي الجزائري من موشحات و أزجال[18] و أحواز [19]ومدائح [20]، وكثيرا من المختارات الشعرية ذات القيمة الأدبية

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

، لا لشيء حسبه إلا لأن شباب اليوم وخاصة الفنانون، لا ينشدونه ولا يتغنون به ، لذلك كان حاجيات يرى بأن الضرورة والحاجة هي التي كانت سببا وراء تحقيق كتاب الجواهر الحسان والتعليق عليه ،ويؤكد حاجيات مرة أخرى على أن هذا التحقيق الذي قام به قد سد فراغا عانى منه كثيرا المغاربة والعرب عامة، وليكون هذا العمل على وجه التحديد في متناول هواة الموسيقى الأندلسية[21] خاصة وأن الأدب الشعبي يتميز بعدة خصائص هي : أن يصاغ باللّهجة العامية، ولأنه يخاطب الطبقة الأمية من المجتمع ، ويتميز بالبساطة ، والوضوح، والتلقائية والعفوية [22].

2- نشأة مراكز الإشعاع الثقافي وشروطه:

كان المؤرخ الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات قد قدم مجموعة من الشروط الطبيعية والسياسية والاقتصادية الواجب توفرها لتكوين مراكز إشعاع ثقافي قارة، ذكر منها: الموقع الجغرافي العوامل السياسية أهمية النمو العمراني ،كثافة التبادل التجاري والعلاقات الاجتماعية [23].و في حقيقة الأمر كان هناك تبادل ثقافي وثيق بين مختلف بلدان المغرب الإسلامي ،بل وتعداه إلى حدوث علاقات ثقافية بين المغاربة والمشارقة نسج خيوطها هؤلاء العلماء الذين رحلوا إلى المشرق والتقوا بنخبتها ، فأثروا وتأثروا بها، وعليه فقد استفادت تلمسان من هذا التبادل الفكري والثقافي " فكان لها حظ وافر من النهوض بالعلوم ونشرها ،والسعي الى خدمة الحضارة الإنسانية وتطويرها ،وبذلك تواصلت الحركة الثقافية بتلمسان أثناء القرن التاسع ، رغم ما أصابها من ضعف واضطراب وفتن وكان الكثير من الملوك الزيانيين من أبناء أبي حمو الثاني[24] وأحفاده، قد ورثوا عنه تضلعه في العلوم والآداب وحبه للعلماء وتشجيعه لهم ،فكان بلاطهم يزخر بالعلماء والأدباء ، وكان عهدهم عهد تقدم حضاري [25].

3- الحياة الثقافية لتلمسان: مراحلها وخصائصها:

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

لقد تميزت الحياة الثقافية لتلمسان في العصر الوسيط المتأخر بعدة مراحل لكل مرحلة مميزاتها الخاصة ، فأما المرحلة الأولى التي تمتد إلى غاية أواخر القرن السابع الهجري، فقد تميزت بالتركيز على علوم أصول الدين ، كالفقه والحديث ، وعلوم اللّغة وآدابها (لغة ، نحو، صرف، بلاغة، شعر، نثر)،مما أدى إلى انتشار ظاهرة التصوف ،وكان من أهم أقطابها الغوث أبي مدين (ت594هـ)،كما تميزت تلمسان بكثرة سكانها وتوسع عمرانها بسبب كثرة مهاجري الأندلس إليها (قرطبيين، إشبليين، مرسيين، وبلنسيين [26].

تميزت تلمسان على وجه الخصوص في مرحلتها الأولى، بنموها الثقافي الكبير الذي ساهم في بنائه ثلة من المثقفين من المغرب العربي و الأندلس، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: الأديب الأندلسي أبوبكر ابن خطاب المرسي(ت686هـ)،أبي إسحاق التنسي(ت680هـ)،و شقيقه أبا الحسن التنسي(706)، و وتجدر الإشارة إلى أن القرن الثامن الهجري[27] كان يعد أحسن قرن لعصر نمو الثقافة في تلمسان، فإزهرت بذلك العلوم والمعارف، بسبب التوسع في بناء المدرس، مثل المدرسة التي كانت تحت إشراف الأخوين العالمين الجليلين: أبي زيد وأبي موسى إبني الإمام الزياني الذين تخرج على يديهما علماء كثيرون، نذكر منهم:الآبلي،المقري الكبير،أبو عبد الله الشريف،وابن مرزوق الجد[28]. وأما المرحلة الثانية التي تبدأ منذ تأسيس الدولة الزيانية(العبد الوادية) على يد يغمراسن بن زياد سنة 633ه، وصارت عاصمتها تلمسان التي أصبحت فعليا تنافس ثقافيا عواصم المغرب الإسلامي الثلاث وهم : تونس ، فاس ، غرناطة [29].

وبالفعل لا يمكن إعطاء مثال أكثر من التنبيه إلى علو كعب علماء تلمسان الذين تخرج على أيديهم فطاحلة من العلماء نذكر منهم: العلامتان عبد الرحمن بن خلدون وأخيه يحي اللّذان درسا عن أبو عبد الله الأبلي(681-757هـ)[30] ، و من ناحية أخرى يدعوالأستاذ حاجيات الباحثين إلى

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الإسراع في دراسة وتحقيق وتقييم ونشر الإنتاج الفكري والثقافي لعلماء تلمسان الذين ساهموا في بناء نهضتها، لأن ما نشر منه لحد الساعة يعد قليل جدا وغير كاف، ونذكر منها المصادر التالية، المسند لإبن مرزوق الخطيب ،بغية الرواد ليحيى ابن خلدون، تاريخ تلمسان لأبو عبد الله بن هدّية(ت735ه) [31].

و في هذا السياق يوافق الدكتور قويدر بشار أستاذه عبد الحميد حاجيات في مسألة قلة اهتمام المؤرخين بإبراز أهمية ومكانة تلمسان الثقافية، ولكنه في نفس الوقت، فهو متفاءل جدا ،ورأى بأن هذا الأمر سيزول في المستقبل القريب ، عندما يلتفت أبناء الجزائر البررة إلى أهمية تراثهم ويقفون عند ما خلفه أسلافهم من رصيد حضاري غني ،وعناصر ثقافية ،كانت بالأمس تشع بأنوارها لتضيء سبيل الشعوب المغاربية ، وتنير طريقها وتوجهها إلى ما فيه الخير والصلاح [32].وهنا يطمئن الدكتور عبد الحميد حاجيات قراءه بأنه تصرف بأمانة علمية ورغبة في تسهيل قواعد اللّغة العامية ،و قام حاجيات بإخضاع الشعر الشعبي لقواعد الشعر الفصيح ، حتى يتسنى للمواطن الجزائري التلمساني تحديدا من فهم كلماته ، واستعذاب معانيه على النحو الذي ارتضاه صاحبه [33].

و من نافلة القول فقد شهدت تلمسان عاصمة الزيانيين في القرن التاسع الهجري رغم القلاقل والفوضى السياسية، مجموعة من فطاحل العلماء والأدباء الذين كان لهم الفضل الكبير على واقع المشهد الثقافي للمغرب الأوسط، ومن هؤلاء نذكر:سعيد العقباني [34]، ابن مرزوق الحفيد(766 ـ842هـ) ،عبدر الرحمن الثعالبي [35]،محمد بن عبد الكريم المغيلي(ت909هـ)، ومن أهم مميزات هذه الفترة "ازدهار حركة التصوف التي كانت قد قطعت أشواطا بعيدة منذ الموحدين، وأحرزت في القرن الثامن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الهجري على تقدم ملحوظ، إلا أن الأوساط العلمية كانت في أغلب الأحيان لا تزال متمسكة بموقف معتدل،في الصراع الحاد القائم منذ قرون بين أنصار العقلانية من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم، و أعدائها من الصوفية بصفة خاصة، وكان العلماء الذين يمثلون هذا الموقف المعتدل ينتمون غالبا الى فريق السلفية المناهضين للبدع " [36].

و الواقع لم يبق الوضع في القرن التاسع الهجري على حاله ، فقد انقلب الأوضاع رأسا على عقب ،بحيث تمكن التصوف من التوسع في الانتشار بين مختلف الفئات كالعلماء والفقهاء مما جعل التصوف المعتدل الذي قاده الغزالي يتحول إلى نشاط اجتماعي تنظمه عدة طرق كالطريقة الشاذلية[37] ،مما أدى إلى استنكار فريق السلفية للبدع التي أقحمت في حركة التصوف، وكان من بينهم ابن مرزوق الحفيد و ابن زكري [38]. ومن أسباب طغيان ثقافة المتصوفة على ثقافة الفقهاء تشجيع حكام الدولة الزيانية وتعاطيهم للحركة الصوفية، مثل ما فعل السلطان أحمد العاقل (834–866ه)، إلى درجة أن هذا الأخير استجار بقبر الولي القطب الغوث أبي مدين شعيب[39] عندما انهزم أمام أبو ثابت المتوكل وانتزع منه الحكم سنة 866ه [40].

يرى الأستاذ حاجيات بأن القرن التاسع الهجري كان عصر سيطرة ثقافة التصوف على تلمسان بصفة خاصة والمغرب الأوسط بصفة عامة، على حساب ثقافة العلوم الإنسانية والاجتماعية كالتاريخ والفلسفة، وكذلك العلوم الطبيعية والرياضية كعلم الفلك والرياضيات والكيماء والطب..،أي طغيان الثقافة الدينية الصوفية على الثقافة العلمية،مما نتج عنه خللا في التوازن بين العقلانية والروحانية،مما كان له انعكاسات سلبية على مستقبل الحركة الفكرية والثقافية للدولة الزيانية، انطلاقا من عاصمتها تلمسان، التي بدأت تؤسس لعهد جديد، هو عصر الجمود الفكري والثقافي الذي طال ليله، وطي عصر

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

السجال العلمي والأدبي لتلمسان عاصمة الزيانيين [41].وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد كان قصر السلطان المتوكل الزياني [42] يعج بالعلماء والأدباء، وكان أبو عبد الله التنسي[43] من أشهرهم وأقربهم من السلطان المتوكل، لأنه كان كريما يحسن للعلماء والأدباء فيكثر جوده وعطائه عليهم [44] ، وكان التنسي شديد الإعجاب بأخلاق وسيرة المتوكل ،فكان يمدحه كثيرا ،و لكنه لم يك يمدح من أتوا بعده ، لأنهم ببساطة لم يكونوا في مستواه، ولأن هذا الأخير سقط تحت ضربات الحفصيين [45].

4- المنهج المتبع عند حاجيات:

كان الأستاذ عبد الحميد حاجيات يسير على هدى منهج تاريخي واضح وبسيط ، يربط من خلاله العلة بالمعلول والنتائج بالأسباب، وهذه منهجية المؤرخ، لأنه لا خير في دراسات تاريخية لا تبحث عن العوامل الداخلية والخارجية أو القريبة والبعيدة لتفسير الظواهر الطبيعية وتطور الأحداث التاريخية، ولذلك نرى عبد الحميد حاجيات يركز في هذا الإطار على فترة الازدهار التي شهدتها حاضرة تلمسان مع الإشارة إلى أهم مميزاتها و الوقوف على تأثيراتها على الأقاليم الجزائرية والمغاربية الأخرى[46] ،وفي الحقيقة اتبع الدكتور عبد الحميد حاجيات عدة مناهج علمية بحثية ، كان أهمها المنهج التاريخي الوصفي التحليلي والمنهج المقارن ، ومزج بين عمل الأديب والمؤرخ ، فقام بذلك بـتأريخ الأدب وتأديب التاريخ ، هذا المنهج الذي لا يستطيع أي باحث في الأدب والتاريخ تجاهله خاصة وأن التاريخ كان مختلط بالأدب وجزء منه في فترة متقدمة من التاريخ ،فكان حاجيات يوظف تاريخ الأدب أدب التاريخ، و من جهة أخرى كان حاجيات يعود إلى المصادر الأدبية من معاجم لغوية وموسوعات أدبية وتاريخية، وروايات شفوية، للتأكد من صحة الرويات التاريخية المتضاربة في كثير من الأحيان، لذلك

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

كان حاجيات يستقرئ التاريخ انطلاقا من قضايا أدبية ، فضلا على أنه كان يضع المواضيع الأدبية في سياقها التاريخي والفكري والثقافي .

وليس هذا وحسب ، بل كان حاجيات يطبق المنهج التاريخي الشكي على كل الوثائق التي يتناولها فيثبت الصحيح بإيراد الأدلة والبراهين بمقابلة المصادر والمراجع بعضها البعض ، ويقطع دابر الخطأ مهما كان نوعه ، حتى لا تتواتر هذه الأخطاء القاتلة ، فتنقلها الأجيال أب عن جد ، فتشوش ذهنها وتعكر صفو حياتها، فتعيش مضطربة الفكر والعقل وقلقة على طبيعة مصيرها وحقيقة مستقبلها ، تائهة وحيرانة ، مما يروج لها من أباطيل وأكاذيب، وصراعات سياسية وفكرية وثقافية مفتعلة ، تحمل في طياتها سموما قاتلة ، لا يفجر قنابلها، ويفكك عبواتها إلا المؤرخ الموضوعي والصادق النزيه الذي يحمل هموم الشعوب والأمم، وكان الدكتور عبد الحميد حاجيات واحدا من هؤلاء المؤرخين الذين أدوا ما عليهم وزيادة في ربط مصير الخلف بالسلف ، وإعادة كتابة التاريخ الوطني الجزائري من جديد ، من منظور مدرسة تاريخية جزائرية جديدة ، يكون هدفها تصحيح وتصويب الكتابات التاريخية ، وفي نفس الوقت القيام بالتجديد والإبداع والإضافة الهادفة إلى البناء التاريخي وصنع المعلومة التاريخية وترقيتها، لأن البحث مهما كان فهو في النهاية زيادة وتطوير وإضافة في البحث والمعلومة التاريخية .

و على أساس هذا منهج ،كان الأستاذ حاجيات في كثير من المرات يصحح الأخطاء وبخاصة التاريخية منها ، ويعيد نصاب الحق إلى أهله ، ومن ذلك الخطأ الذي أورده محمد امرابط في القسم الثاني من كتاب الجواهر الحسان حيث نسب قصيدة واحدة من نوع الحوزي إلى ابن سهل الأندلسي [47] ، ومع ذلك لم يقدم لنا حاجيات الاسم الحقيقي لهذه القصيدة ، ولكن يكفيه شرفا أنه أشار إلى الخطأ وأنصف صاحبها[48] ، و من ناحية أخرى أشار الدكتور حاجيات مشكورا إلى سبب رئيسي كان وراء الأخطاء المتكررة في نسب القصائد لغير أصحابها الحقيقيين من أمثال أقطاب الحوزي المشهورين : كابن تريكي،ابن مسايب، محمد ابن سهلة، و أبو مدين ، "ويتمثل في الأوضاع الفكرية والاجتماعية التي نشأ وترعرع فيها الأدب الشعبي ، وبصفة خاصة الأزجال ، أين انتقلت هذه الأشعار من جيل

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

إلى جيل آخر بواسطة الملحنين و المغنين الذين استعملوها في الموسيقى ، وأكثر ما كان ذلك عن طريق السمع [49].ومن جهة أخرى فقد نبه الدكتور حاجيات إلى وجود كثير من الأزجال مجهولة المؤلف في كتاب "الجواهر الحسان"مثل الأرقام التالية: 20، 22، 25 [50] .

فيما يخص الأخطاء اللغوية الكثيرة فلم يهملها الدكتور حاجيات ، بل حذر منها وعدها عدا ، و أرجعها إلى جهل الرواة لكثير من المفردات ،وقلّة بضاعتهم الثقافية ، والتي كانوا ينطقونها بما يمليه عليهم سمعهم أو ذاكرتهم من دون فهم وتبصر [51]، وبذلك حدث تضارب بين تعدد الروايات والنص الأصلي ، مما دفع بالدكتور حاجيات إلى إجراء مقارنة الرواية المتواترة بالسماع بالنص الأصلي، كالمقارنة بين شعر ابن سهل والأعمى التطبلي في الجواهر الحسان [52]، ومن طريق آخر لم يكن حاجيات يمر مر الكرام على الغريب من الكلام ، بل كان يقف عند كل مفردة غريبة فيشرحها شرحا وافيا حتى يسهل على القارئ الفهم السليم ،وبعد الدراسة والتمحيص ومقابلة النسخ بعضها لبعض تبين الدكتور حاجيات إلى أن القصائد التي جمعها محمد امرابط هي الأسلم والأكمل وبالتالي فهي الأقرب إلى الأصل مما جعل حاجيات في النهاية يقرر بأن كتاب الجواهر الحسان يعد مصدرا هاما للباحثين في الشعر الشعبي الجزائري [53].و نخلص في الأخير أن الدكتور عبد الحميد حاجيات قد أرسى قواعد متينة للمنهج الصحيح في كتابة تاريخ الجزائر ،و هو يطالب إلحاح بضرورة إعادة النظر في كل ما كتب حول تاريخ الجزائر ،وبخاصة تاريخ المغرب الإسلامي ، على أن يصحح كل ما ورد فيه من طعن في الأشخاص والجماعات ، ومن تحيز وتعصب،على ضوء الموضوعية والاعتماد على المصادر النزيهة ، و يدعو حاجيات مرة أخرى المؤرخين الموضوعيين التصدي إلى الكتابات المغرضة ويخص بالذكر كتابة تاريخ ابن خلدون من جديد وبموضوعية، لأن الطبعة المتداولة بحسب رأي حاجيات هي طبعة تجارية

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

مملوءة بالأخطاء الفادحة ، خاصة ما تعلق منها بأعلام الأشخاص والقبائل والأمكنة المتعلقة ببلاد المغرب الإسلامي [54].

كان لازدهار الفكر والثقافة في المغرب الأوسط في العهد الزياني عدة تمظهرات شهدتها تلمسان وضواحيها، خاصة وأنها غدت قبلة للعلماء والأدباء والشعراء وهي: ازدهار النشاط الاقتصادي و التجاري في تلمسان خلال العصر الزياني (7-9ه)،ونشاط وحيوية حركة التأليف وانتشار المكتبات المتعددة الأنواع والوظائف، تنافس الحكام في بناء وتشيد دور العلم والعبادة من مدارس ومعاهد عليا ومساجد أية في الإبداع، تنشيط الحركة العلمية بنشاط وحيوية الوقف الإسلامي ، لذلك اهتدينا إلى النتائج التالية :

- غدت تلمسان عاصمة الزيانيين حاضرة للعلم والعلماء والأدباء المتميزين.
- تأكيد حاجيات على البعد الفكري والثقافي لتلمسان وهو إنصاف لعصر الزيانيين الذي صوره المستشرقون على أنه كان كله عصر حروب وفتن وفوضى.
- ساهم حاجيات في إرساء مدرسة تاريخية جزائرية لتاريخ الجزائر في العصر الإسلامي التي تركز بصفة خاصة على الجوانب المشرقة في استظهار عناصر الهوية الثقافية الحضارية.
- كان حاجيات من المؤرخين الجزائريين القلائل الذين اهتموا بتوضيح العلاقة بين الأدب والتاريخ، وكيف خدم الأول الثاني.
- كتابة التاريخ انطلاقا من وثائق الأدب الشعبي لما تحمله من معلومات تاريخية قيمة وثرية ومتنوعة.
- اقتراح إقامة مخبر باسمه، وإقامة ملتقى دوليا حول أقطاب المدرسة التاريخية الجزائرية في تاريخ الجزائر الوسيط ويستدعون لحضور الملتقى طبعا.
- فتح تخصص دكتوراه كمشروع بحث للتخصص في دراسة وتحليل أعمال حاجيات.
- جمع كل ما كتبه حاجيات وما كتب عنه.
- تسمية جائزة سنوية باسمه ، تتبناها إحدى الجهات أو الجامعات كتلمسان، أو الجزائر،

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

أو سيدي بلعباس ، ولما لا الثلاثة معا.

الهوامش:

(1) عبد الحميد حاجيات ،" تلمسان مركز إشعاع ثقافي في المغرب الأوسط"، (**مجلة الدراسات التاريخية** ، عدد 10، معهد التاريخ الجزائر1997، ص 181).

(2) عبد الحميد حاجيات ،" الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان " ،(**مجلة الأصالة**، عدد 26، الجزائر 1975 ،ص 136-156).

(3) عبد الحميد حاجيات، تلمسان مركز اشعاع، ص 182.

(4) نفسه، ص 182.

(5) نفسه، ص 182-183.

(6) نفسه ، ص 183.

(7) لقد إتخذها أيضا الموحدون عاصمة لهم .

(8) نفس المرجع ، ص 183.

(9) نفسه ، ص 185.

(10) قويدر بشار، " إطلالة على الفكر السياسي الإسلامي في الجزائر: نموذج لأبي حمو موسى الزياني "، (**مجلة الدراسات التاريخية** ، عدد 10، معهد التاريخ ،الجزائر 1997،ص197-198).

(11) مجموع ، **كتاب الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان** ،تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1982،ص5 ، 6.

(12) نفس المصدر، ص 6.

(13) شارل بروسلار (1816-1889)، مستشرق ومؤرخ فرنسي، إستقر بتلمسان سنة 1835 وعمل بها شرطيا ،كان يشغل منصبا إداريا ساميا كرئيس بلدية سنة 1854، ثم رئس دائرة ، وكان مولعا بالأدب الشعبي والموسيقى المغربية، له كتاب "دراسة أثرية تاريخية حول قبور ملوك بني زيان" سنة 1876 عن المطبعة الملكية الفرنسية بباريس ، و الزهرة النيرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الكفرة لابن رقية التلمساني ترجمه إلى الفرنسية ألفونس روسو، تلمسان وتامبكتو1861،

(14) نفس المصدر ، ص 7.

(15) المدرسة التاشفينية، تقع بمحاذاة الجامع الكبير ، وأسسها أبو تاشفين عبد الرحمن الأول (718-738ه) ، وكان من أهم معلميها : أبو عبد اللّه محمد السلاوي (ت: 737)، وأبي موسى عمران بن موسى المشدالي (ت: 745) .

(16) نفس المصدر،ص 7.

(17) نفسه،ص 8.

(18) الزجل هو نوع من أنواع الأدب الشعبي ، وهو فن العامة بالأندلس من الشعر ، وكان مؤسسه هو أبوبكر ابن قزمان.

(19) الحوزي هو الشعر المنظوم بالعامية ، وهو نفسه الشعر الملحون عند أهل تلمسان ..

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

(20) المديح هو نوع من الأغراض الأدبية، يستعمل غالبا في الحفلات الدينية وفي بعض مناسبات الأعراس والختان وكذلك المديح الصوفي الذي يعتمد على الزهد، وحتى في أيام الأموات، ولكن في الغالب الاعم هي مدائح نبوية كمديح البردة .

(21) نفس المصدر ، ص 9.

(22) محمد بلقراد، "الأدب الشعبي "، (**مجلة التاريخ**، عدد 19، المركز الوطني للدراسات التاريخية الجزائر 1985، ص62).

(23) عبد الحميد حاجيات، تلمسان مركز اشعاع ، ص 185.

(24) أبي حمو الثاني(723هـ – 791 ه)،مؤسس دولة بن عبد الوادية ، وهو بانى المدرسة اليعقوبية سنة 765 هـ ، بلغت الثقافة أعلى مستوياتها في فترة حكمه1389-1359م

(25) أبو عبد الله التنسي، **تاريخ دولة الأدارسة (من كتاب نظم الدر والعقيان)**، تحقيق وتقديم الدكتور عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1984 ،ص 11.

(26) نفس المصدر، ص 185.

(27) تميز القرن الثامن الهجري بنبوغ عدد كبير من رجال العلم والأدب إمتاز انتاجهم بالإجتهاد والإبداع في مختلف المجلات كالطب والرياضيات. أنظر، تلمسان مركز اشعاع، ص187.

(28) نفس المصدر ، ص 186.

المصادر و المراجع:

(1) بشار قويدر ، " إطلالة على الفكر السياسي الإسلامي في الجزائر: نموذج لأبي حمو موسى الزياني "، (**مجلة الدراسات التاريخية** ، عدد 10، معهد التاريخ ،الجزائر 1997).

(2) بلقراد محمد ، "الأدب الشعبي "، (**مجلة التاريخ**، عدد 19، المركز الوطني للدراسات التاريخية الجزائر 1985).

(3) التنسي أبو عبد الله ، **تاريخ دولة الأدارسة (من كتاب نظم الدر والعقيان)**، تحقيق وتقديم الدكتور عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر 1984 .

(4) حاجيات عبد الحميد ،" تلمسان مركز إشعاع ثقافي في المغرب الأوسط"، **(مجلة الدراسات التاريخية** ، عدد 10، معهد التاريخ الجزائر1997).

(5) ———————— ،" الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان " ،(**مجلة الأصالة**، عدد 26، الجزائر 1975).

(6) ———————— ،" نقد المصادر و أهمية ذلك في كتابة تاريخ الجزائر"، (**مجلة التاريخ**، عدد 19،المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر 1985).

(7) دهاش الصادق ، " العلاّمة عبد الرحمان الثعالبي رحلة علم وعمل"، (**مجلة الدراسات الإسلامية**، العدد 11، جامعة الجزائر، جوان 2007).